# أمكنة

## نـــــهر الأردن

* مفلح العدوان

# نهـر الأردن:

## شاهد الفصل الأخير!!

• مفلح العدوان

أنا قطرة من صلبك..
وأنت كل (الكل) نهراً دائم الرسالات، فالتحيات لك، فيضا من حلمٍ رأيتك فيه طيفا بين توق القلب، وخفّة الروح، فهشّت لك روحي، وقد كنت اشتقت لقياك بعد طول غياب!!
قلت لك: أنت عزيز منزلك.. الصدر لك.

تحقق هذا من أول لذّة الحلم، وكان أن سألتك: أينك؟ كل تلك السنوات وأنت محتجب عنا، ترى من غيّب نداك، وما الذي واراك، وأين كنت ؟!

وأنا بحت خشيتي لجلال قدرك، ذات شوق زعزع صمت الغفلة واستوى ماردا، باشقا، «زريف الطول»، مشنشلا بقداسة الماء، ونقاء النار، ومهابة التراب، وخفة الهواء: تباركت أيها النهر.. ها أنا عدت لك، وأعرف أن بيني وبينك خوف، وجند، ودعوات الجدات بأن تعود أليفا كما ألفناك.. عدت، أنا المرهون لك، المنتظر إيابك مُذ (حينما لم تكن الأرض أرضا، ولا السماء سماء)، فأمطر بحضورك وجهي الآن، طهّر بمقدس مائك روحي، وعمّد بدلالات حلولك حضوري، فقد آمنت بمائك وبمن وحّدتهم جوهرا، فصاروا أنبياء وشهداء وقديسين، ومنهم الأنقياء الطيبين الذين أعادوا قراءتك، مرة أخرى، عبر تراتيل توقهم ، ودفء أمانيهم ، كأني ما عرفتك إلا هذه اللحظة، فأصرّ على أن أتهجاك قطرة، قطرة، وأدري أن لا طهارة بلاك، وأصارحك البوح، فأبيح دمي للذين لم يعرفوك، وأقرأ خريطة البلاد، كل البلاد، من سطور معانيك، باحثا عن مسيح تعمّد فيك.. ها أنا أرى حوله تلاميذه يهبّون في النهر مثله، فيزداد نبع التقديس.. أتهجاك أكثر.. ما أعظم ما لديك، تهادى، فأنت الشاهد، الشهيد، مهيبا، عتيقا، حقيقة راسخة، لا حبرا على ورق !!

### المجرى.. والمبتغى

أعرفك نقيا كمهج الأنبياء، مباركا كبؤرة عين السماء، هكذا أنت ، قبل الأطالس، والخرائط، وقسمة الأرض على غير أهلها، ونحن أهلك، يا نهر الأردن، معك جناحي عقاب، وأنت حين تضيق ذرعا بالسكينة، يفيض ماؤك، من سنين لم نر فيضان مائك .. أم أنك دائما تفيض، وتُزيّف الأخبار عنك ؟!
أيها النهر المقدس: أشتاق، فأرتحل معك، نحو الأيام الأولى، تلك الأيام التي ما زلت تعيدها سيرة تتلوى بين جبل الثلج، وبحيرة الملح، وأنت الوفي للمنبع هناك في جبل الشيخ حيث

# نهـر الأردن

يرفدك الشقيق الحصباني من غرّة فينيق لبنان ، والأخوان النهران بانياس ودان المنبثقان من بين أصابع أدونيس سوريا ..

يستمر جريانك إلى أن تحط رحالك في نقش كفّ البحر الميّت..

أنت ما زلت وفيا، عرفتك لا تنسى مجراك، ولا تتنكر لمبتغاك، كما أنك الوفي لاسمك المنحوت من الشدة والغلبة، أنت أيها النهر المنحدر السحيق يا أقدس الأنهار .

## تلك الروافد

تعال .. أقبل ..

أنا لا أخاف عليك، ولكن أخشى على نقاء مائك من جور الزمان ..

ها أنت تدخل بحيرة طبريا، ثم تغادرها مشوقا إلى أنهر تزيدك زخما كلما ازددت تقدما، لتصير لك روافد أخرى أعرفها كما أنت؛(نهر اليرموك ، والزرقاء ، وجالود)، إلى أن تصب في البحر الميت، غير أن ماءك واحد، وأنت نهران، كما حكى عنك ذات زمن ياقوت الحموي: «هما أردنان، الأردن الكبير، والأردن الصغير. فأما الكبير فهو نهر يصب إلى بحيرة طبريا، وبينه وبين طبرية لمن عبر البحيرة في زورق اثنا عشر ميلاً . تجتمع فيه المياه من جبال وعيون. فيجري في هذا النهر فتسقى أكثر ضياع جند الأردن، مما يلي ساحل الشام وطريق صور. ثم تنصب تلك المياه إلى البحيرة التي عند طبرية، هذا النهر، أعني الأردن الكبير، بينه وبين طبرية، البحيرة. وأما الأردن الصغير فهو نهر يأخذ من بحيرة طبرية ويمر عند الجنوب في وسط الغور فيسقي ضياع الغور، وأكثر مستغلتهم، السكر. وعلى هذا النهر قرب طبرية، قنطرة عظيمة ذات طاقات كثيرة تزيد على العشرين ويجتمع هذا النهر ونهر اليرموك فيصيران نهراً واحداً فيسقي ضياع الغور وضياع البثنية ، ثم يمر حتى يصب في البحيرة المنتنة في طرف الغور الغربي».

## الشريعة

أثوب اليك..

أعود تتقمصني روح طفل يعشق مجاراة انسيابك رغم منعطفاتك الكثيرة، فأودع قلبي معك، وأنقش نبضي على المسافة المقدسة بين منبعك ومصبك، وكلما تماهيت مع سر مائك أكثر تشربتك وعيا أعمق، فأعرف معنى التداخل بين اسمك الأردن تارة ، وتارة الشريعة، حيث أنت في كلتا الحالتين، مورد الشاربة..

ها قد تكرّست اسما مقدسا ، وعنوان عطاء!!

نهر الأردن.. نهر الشريعة.. نهر الألفة، شرقا، وغربا.. وأقرأ

# نهــر الأردن

اسمك في كرّاس جمعت فيه كل ما يدلّ عليك، حيث في الصفحة المكتوب في منتصفها (شعر لعائشة الباعونية الذي قالته حين بنى الملك الظاهر برقوق جسرا يصل بين ضفتي الشريعة)* :

(بنى سلطاننا برقوق جسرا بأمر والأنام له مطيعه
مجازا في الحقيقة للبرايا أمرا بالمرور على الشريعه)

## القربان المقدّس

أرويك حكاية، ثم أكتبك قصة ..

كان يا ما كان، في قديم الزمان: اعتقد بعض المؤرخين أن مجموعات من المقدونيين والحثيين تعايشت حول هذا النهر بعد أن نزحت من الجنوب الغربي من آسيا الصغرى ومن تساليا وذلك قبل العصر الهليني وأطلقت على النهر اسمه الخالد .. نهر الأردن .

وقال عنه المؤرخ الروماني «تاسيتوس» :»أن جبل الشيخ هو والد نهر الأردن والذي يغذيه». وقيل أيضا بأنه في القرن الرابع للميلاد كانت تقام في مغارة تقع على أحد جانبي جبل الشيخ ، عرفت باسم «مغارة رأس النبع»، مراسم وثنية في يوم عيد معين كانت ترمى فيه ضحية مذبوحة، وكانت هذه الضحية تختفي بطريقة عجيبة، كقربان مقدس للنهر حتى يزيد عطاؤه، ويرحم المجاورين له إن فاض ماؤه ...

ومنذ أقدم العصور والنهر حاضر في النقوش والوثائق والكتب المقدسة القديمة، ولعل أكبر شاهد على عراقته يتمثل جليا في خريطة مأدبا التي يعود تاريخها إلى القرن السادس ، وفيها يتضح نهر الأردن الذي رسمته الفسيفساء كما رسمت معدتين لاجتياز هذا النهر أحدها عند مصب سيل الزرقاء ، والثانية في المكان الذي عنده ينتصب جسر الملك حسين .

أما في التاريخ العربي فقد ذكر أن الظاهر بيبرس أمر سنة ١٢٦٦م ببناء جسر له خمسة أقواٍس فوق نهر الأردن مقابلٍ بيسان ، ولم يكن ذلك البناء متينا مما جعل المياه تجرف قسما منه فغضب السلطان بيبرس وأمر بإعادة البناء... هذه بعض حكاية النهر التي كانت في كل عصر تتجدد ويضاف عليها، كأنها الأسطورة الخالدة عبر كل زمان.

## قلوب الشعراء

طِيب المقام، وتميمة النهر..

تلك دلالات لها وقع صدى على قلوب الشعراء حين يكون النهر عنوانا لما يكتبون، فيتحررون من كل رواسب الجسد، ويغيبون في ملكوت القداسة والروح هناك حيث كان أبو فرج الأصفهاني يرصد جيوش صلاح الدين في مسيرها الى حطين، ومن ثم فتح القدس، بعد عبور نهر الأردن:

« سحبت على الأردن ردنا من القنا

بلد كله هدى فسواء
قرع ناقوسه وصوت آذانه «

## سيرة تُحكى

ها أنا ذا أنصت اليهم، لكنني أعود اليك، أيها النهر، وأتماهى مع بوحك، وهمسك، فأسمعك وأنت تتكلم بما يقول القرويون وهم يغسلون لهاث يومهم بمائك، وأتنفسك عابقا بالشيح، والقيصوم، والطلح، ناثرا فسيفساء الدفلى على ضفتيك، فقل، أيها النهر، كل أسرارك، واقرأ علينا سفر المعارك التي دارت قريبا منك، واكشف بمهابتك ما لم يجرؤ كتبة التاريخ أن يسطروه عن فحل، وحطين، وعين جالوت، والكرامة..
ها أنا أتلمس بَرَكة مائك، وأسمعك تتكلم بما يقول القرويون عن ذاكرتك وهم يغسلون لهاث يومهم بمائك، ناثرين جدائل الدفلى على مفرقيك، مستعيدين سيرة تحكى بالأخضر النقيّ عن معارك فحل وحطين وعين جالوت والكرامة، ويزيدون مستذكرين سير من جاوروك في مقامات مباركة لمعاذ بن جبل، وشرحبيل بن حسنة، وأبي عبيدة عامر بن الجراح، وضرار بن الأزور ، وعامر بن أبي وقاص.. الكل رحل وأنت الشاهد

ردينية

ملدا وخطية ملسا
حططت على حطين قدر ملوكهم
ولم تبق من أجناس كفرهم جنسا

وقد طاب ريانا على طبريا
فيه طيب ريا ويا حسنها مرسى ».

هناك عند عتبة النهر، وبعد سنوات، يقف أمام مهابة الأردن، عبد الغني النابلسي، واقفا في الجهة الغربية، ويتجه بعينه شرقا، مرتحلا في معانيه:

« يا سقا الله من أراضي أريحا
جانبا مشرقا وقفرا فسيحا
ورعا ثم للشريعة نهرا بزلال المياه كان طفيحا »

وفي الجهة الأخرى من النهر يلاقيه بمحبة، وفي زمن آخر، صوت عرار مستجيبا للرسالات العتيقة التي رسخها النهر:

« بارك الله فيك أردن دارا
ليس فيك الغريب عن أوطانه

الأبقى، والصادق الأتقى، والناطق الأطهر بما سيتحقق حولك من معجزات الزمان ..

أقرأ في اللفائف القديمة عن رسالتك حتى آخر الزمان في أنك وحدك من سترى الفصل الأخير من معركة النور والظلام، وستشهد صراع الحق مع الباطل ، فاجهر بصوتك عما كُتب، عنك، وعن وظيفتك حتى آخر العهود، خاصة ما ذكره أبو عبيد البكري في معجمه ، حين قال :

« الأردن نهر بأعلى الشام وهو نهر طبرية.. وأصل هذه التسمية في اللسان النعاس، وورد في الحديث أن جزيرة العرب لما افتتحت قال رجل

عند ذلك: أبهوا الخيل والسلاح فقد وضعت الحرب أوزارها. فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فرد قوله عليه وقال : لا تزالون تقاتلون الكفار حتى يقاتل بقاياكم الدجال ببطن الأردن ، أنتم من غربيه ، والدجال من شرقيه.. قال الراوي ما كنت أدري أين الأردن حتى سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم « .

## الثمر الطيب

وحدك من تفرق بمجهر نقائك بين لون الدم، ووهم السراب .. تعلمت هذا حين كنت تحمي بنقاء مائك يوحنا المعمدان حين كان يواطنك بعيدا عن كهنوت الوحشة، ويختارك نهرا للتطهير، والتعميد، فيوشوشك، والآتين اليه، قبل أن يقتله المارقون، قائلا :

( أنا سيد هذا المكان.. حين اخترته ، معمدا فيه الجموع التائبة من رجس الحياة الدنيا، ومن شرور أعمال نفوسهم، كنت أعي ذاكرة القداسة فيه، قبل أن أواطنه .. أقرأ ذرات ترابه.. أتأمل صفحة نوره فأتهجّى رحلة مار الياس(النبي ايليا)، عبر النهر وإلى ضفته الأخرى، وأتأكد من معنى بقائي سادنا لمحراب الماء، حين جاءني المسيح مضفيا شرف حلوله على المكان، بقدومه لي على ضفة نهر الأردن كي أعمده، فيتطهر، ويتقدس بهذا الحضور كل الماء والنهر والأرض المحيطة به.. أحدّق في مرآة الماء، فأرى توق النهر لاستحضار الغائبين عنه..).

وأقرأ سفر القداسة، مسكوناً بصوت الحق على صفحة الماء:(أثمروا ثمرا يليق بالتوبة، ولا يخطر لكم أن تقولوا في نفوسكم إن أبانا إبراهيم، لأني أقول لكم أن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولادا لإبراهيم، ها إن الفأس وضعت على أصل الشجرة، فكل شجرة لا تثمر ثمرة جيدة تقطع وتلقى في النار..) .

ومنذ تلك الثمرة ، ما زال الصوت يحضر عند كل خلجة نفس ،مكملا تعميد كل من أتاه: (أنا أعمدكم بالماء للتوبة، وأما الذي يأتي بعدي فهو أقوى مني، وأنا لا أستحق أن أحمل حذاءه ، وهو يعمدكم بالروح القدس والنار) ..

## للماء دورة أخرى

ياه.. سلاما يا سادة النقاء.. سلاما يا نهر الأردن، الذي وهب للماء معنى ارتفع بدلالاته درجات عن كيمياء السيولة، وفيزياء التحول .. صار للماء دورة أخرى .. وجه آخر، يتجمل بمعاني القداسة، والشهادة، والتعميد، والطهارة، والنقاء، مترجما بأبجديته العليا معاني الناموس المقدس ، وعهد النور المتحقق بـ(هذا هو الحبيب الذي به سررت).. ها هو همس السر يتفتّق من ثغر التفاصيل الناضجة في النهر، كاشفا عن فسيفساء المعنى، ومهابة القداسة.

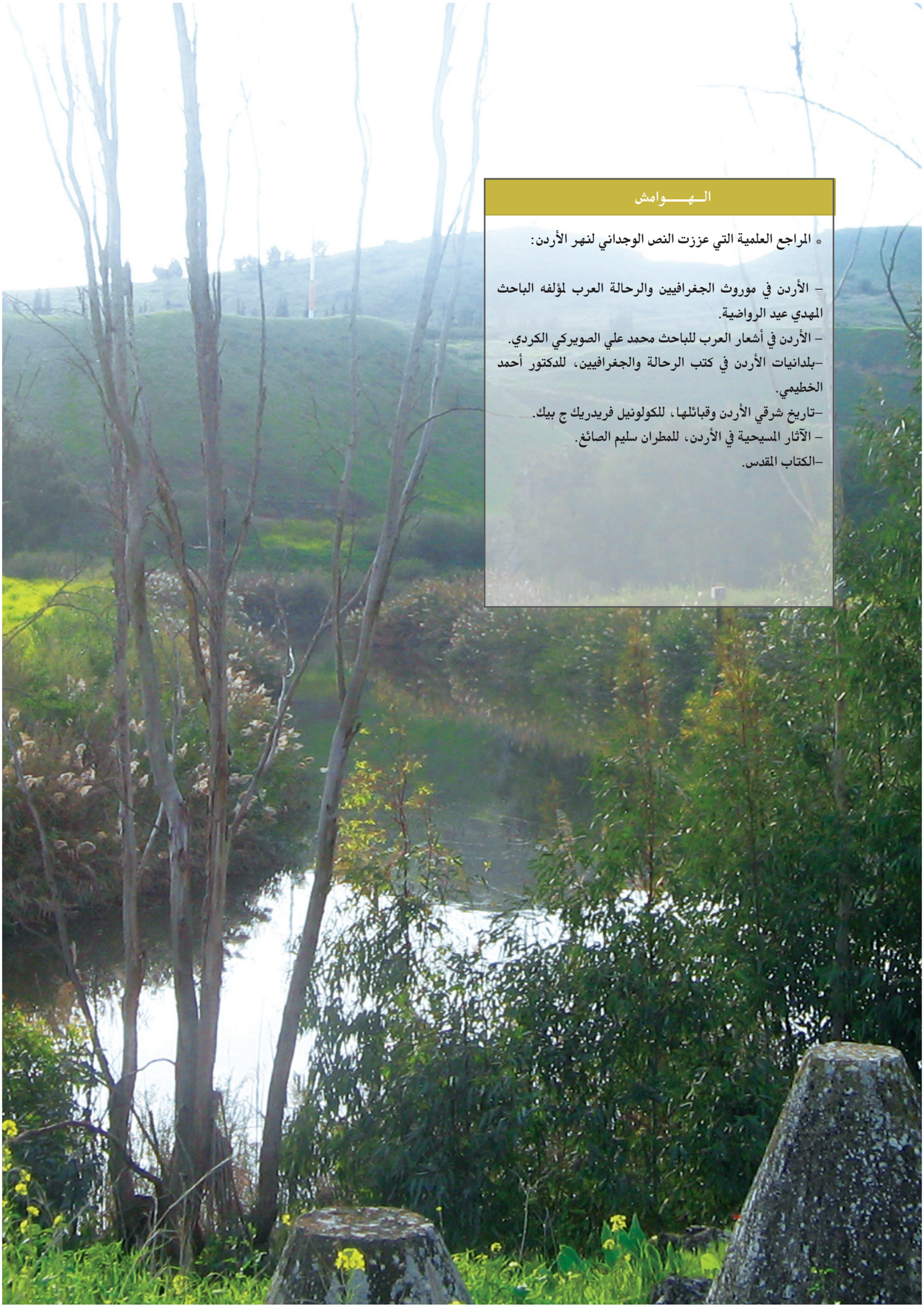

## الـهـــــوامش

* المراجع العلمية التي عززت النص الوجداني لنهر الأردن:


– الأردن في موروث الجغرافيين والرحالة العرب لمؤلفه الباحث المهدي عيد الرواضية.
– الأردن في أشعار العرب للباحث محمد علي الصويركي الكردي.
–بلدانيات الأردن في كتب الرحالة والجغرافيين، للدكتور أحمد الخطيمي.
–تاريخ شرقي الأردن وقبائلها، للكولونيل فريدريك ج بيك.
– الآثار المسيحية في الأردن، للمطران سليم الصائغ.
–الكتاب المقدس.